من مذكرات سجين

للقصصي الكبير فرانسوا كوبيه

بقلم الأديب عبد اللطيف حسين الأرناؤوط

في صباح الغد ، ينقضي أمد ستة الأشهر التي حكم على بقضائها في السجن لسرقتي ألفي فرنك من خزانة المحل الذي كنت موظفاً فيه . في صباح الغد أكون قد كفرت عن خطيئتي وقضيت ما عليّ من دين للمجتمع الإنساني .

في صباح الغد في الساعة الثامنة سيطرق السجان باب سجني ومعه ثيابي التي خلعتها قبل دخولي السجن . وإني لأذكر تلك الثياب ، فإنها كانت جديدة متقنة الصنع على أحدث طراز وسأرتديها غداً وأخرج إلى الطرقات . فمن يظن وأنا في مثل هذه البزة أني خارج من أعماق السجون ! سأخرج في الساعة الثامنة وأرى مرغريت كوعدها تنتظرني في عربة أمام باب السجن ...

بين مساء اليوم وصباح الغد سأصير حراً طليقاً وسأكون سعيداً لو أردت ، فمرغريت التي ارتكبت من أجلها هذه السرقة تقسم لي في خطاب الأمس أنها ما زالت حافظة لعهدي متمسكة بودي ، وأنها ستعيش معي حتى الموت ، إذن فسنعيش آمنين بين أحضان باريس العظيمة التي وسعت كل عار وسترت كل ذنب ، ومن كان في نشاطي لم يعجزه مرتزق يعيش من ورائه هو وحبيبته ... ولكن لندع عمل المستقبل للمستقبل ، ولا نفكر الآن إلا في الغد ، وما سيتبلج عنه صبحه ، إن مرغريت ستنتظرني في عربة فعندما أرى هذه العربة أمام السجن ، أجري إليها ، فألمح مرغريت منزوية في ركن منها ،

لفظة لازاريت :

قال الأستاذ الجاحظ في العدد الماضي من الرسالة إن بعض الغربيين زعم إن كلمة لازريت الفرنسية . Lazaret (ومعناها المنزل أو الحجر الصحي) مشتقة من كلمة « الأزهر » « لأن الأزهر في مصر ملجأ للعميان والشيوخ والمتقاعدين »

وبعدما أنحى الجاحظ باللائمة على أولئك المتعجلين من الباحثين لتورطهم في أخطاء الاشتقاق ، قال إن الأصل اللاتيني لكلمة لازاريت معناه المجذوم وأن الصلة بين الحجر الصحي والمجذوم أقرب وأكثر جلاء منها بين لفظتي « الأزهر » و « لازاريت »

ويخيل إلى أن الاشتقاق — إذا كان هناك اشتقاق — مستمد من اسم « لازار » Lazarus وهو رجل فقير أخذت جميع الأمراض بتلابيبه — ومنها الجذام — وكان طريح الأرض عند باب ثري يريد أن يشبع بطنه الفتات الساقط من مائدة ذاك السري . وقد روى قصة هذا الفقير السيد المسيح كما جاء في إنجيل لوقا إصحاح ١٦ عدد ١٩ — وقال إن كلا من الفقير والغني مات فكان جزاء الأول أن ينعم في حضن إبراهيم وكان جزاء الثاني هاوية العذاب يشتهي حتى أن يبل لازار طرف إصبعه بماء ويبرد به لسانه .

وأحسب أن هذه القصة بسبب كثرة تداولها وشيوعها بجميع اللغات ولا سيما اللاتينية واشتقاقاتها ، كانت السبب الأول في أن يقترن اسم لازار بالبلايا والأمراض والفقر وتلك هي عين المعاني التي ترمز إليها كلمة Lazare الفرنسية ومنها اشتقت كلمة لازاريت Lazaret .

هذا في ظني مصدر الاشتقاق ، وإذا كان عند المليمين شيء فليطلعونا عليه للنفع العام .

وديع فلسطين

المحرر بالقطم — القاهرة

فأخذ مكانى بجانبها وأمر السائق باحتثاث السير ، وبعد ذلك أمسك يد مرغريت وأنظر إليها فتهتاج السكينة شوقاً ، وترتمى على صدرى باكية ...

ما أعذب القبلة التى تعقب ذلك . وتكون العربة أثناء ذلك قد أوصلتنا إلى منزلنا فنصعد إلى غرفتنا فى الطابق الرابع ، التى تشرف نافذتها على حدائق اللوكسمبرج . ونعد مائدة إفطارنا أمام النافذة حيث تداعب أشعة شمس الصباح أنيتها فتبدو لامعة كأنها تبتسم للاقانى ، وبعد أن نتناول طعامنا بين حديث ولعب ، تجىء مرغريت بالقهوة ، فأجلس أحتسيها ، وتجلس هى بجانبى وتسند رأسها إلى كتفى ، فأستنشق عبيرها ، وأستروح أنفاسها ، ثم أقبلها قبلة طويلة .

هذا ما يعده لى صباح الغد ، وهذا ما سألقاه فيه من حرية وسعادة وحب ...

ولكن كل هذا لن يكون ... فسأنتحر بعد قليل .. ربما يسود وجه الصحيفة التى أكتبت عليها هذه الكلمات . فالحبل الذى أعددته من غطائى متين والقضبان الحديدية فى النافذة سميكة !

يجب أن لا أخرج صباح الغد من قبرى هذا إلى الحياة . إذ لو خرجت لارتكبت آثاماً أخرى . فإنى لا أقوى على رؤية مرغريت واقفة أمام حانوت الجوهرى تلتهب نظراتها إلى أساور من ذهب أو تصعد زفراتها وراء قرط من جوهر ، أو تنظر إلى خاتم من ماس ثم ترجع النظر حاسراً إلى أصابعها العاطلة . عند ذلك أقسم بالله أنى أعود فأسرق لأجىء لها بما يرضى نظراتها ويهدأ زفراتها ويحقق رغباتها ... بالله . هل أنا مجرم من أكبر الناس إجراماً ؟ أم أنا مجنون ضل عنى رشادى ؟ لا أعلم غير أمر واحد ، هو أنى أعود فأسرق لأرضى مرغريت ...

يا لها من امرأة . ويا لعظيم حبى لها ووجدى بها منذ أول يوم رأيتها . إنى لأذكر ذلك اليوم وأذكر أنى كنت مع صديقين دعيانى للذهاب معها إلى (مونمارتر) حيث كانت حفلات العيد قائمة واللهو رخيص ثمنه ، سهل مناله . وكنت متعباً ذاك المساء فرفضت دعوتهما أولا ولكنهما ألحا علىّ فقبلت أخيراً ...

وجئنا (مونمارتر) فكانت مساحاته تموج بآلاف من الخلق ووقفنا أمام أحد مراقصه فرأينا فتاتين ترقصان ، فحادثهما أحد صديقى وجلسنا معهما . وكان مجلسى بجانب إحدى الفتاتين وكانت شقراء الشعر جميلة الوجه محتشمة الحديث فقيرة الهيئة . وحادثتها فكان صوتها جذاباً كعينيها وقال لها أحد صاحبى كلمة غليظة خلال الحديث فلم تجبه إلا بابتسامة تغتصبة تدل على أدب الفتاة وأنها غير راضية لما هى فيه من حال ، ودعوتها لمنزلى ، وقصت علىّ الفتاة باكية — وإنى لأحس حرارة دموعها حتى اليوم — قصة مجيئها إلى هذه الحياة من أحد أبوابها المظلمة وطفولتها البائسة وفقرها المؤلم وإيصاد كل باب رزق دونها ونشريدها آناء الليل فى شوارع باريس الباردة المظلمة . ثم زلتها الأولى ، واندفاعها فى ذلك التيار الذى طالما حمل فى سيره ضحايا لا عداد لها ، فبكيت رحمة لبكائها ، وعرضت عليها أن تجىء فتعيش معى عيشة الفضل والعفاف فقبلت راضية وسرنى رضاها وأظننى أتيت أمراً لا طاقة لى به إذ ذاك ، فإن ما أتقاضاه من مرتب ما كان يسمح لى بمعاشرة امرأة اللهم إلا إذا كانت امرأة مقتصدة تقنع بالقليل ولا تطلب الكثير ومرغريت يا للأسف ليست كذلك . فقد كانت تختبىء فى قرارة نفسها الفتاة الباريسية التى تشارف فى غدوها ورواحها حوانيت الحلى والحلل ، وتلامس فى سيرها وركوبها السيدات اللائى رزقن الغنى بثمين اللباس وغالى الزخرف وكنت أرجع من عملى ظهر كل يوم فأراها ملازمة لسريرها لا تفكر فيما يقتضيه المنزل من عمل فحاولت أن أصلح من أمرها وأقوّم من خلقها فأجابتنى بقسوة « ماذا تريد ؟ هكذا خلقت فدعنى وابحث عن سواى ، فلن تصلحنى مهما حاولت » فم أدر كيف أجيبها على قولها ، فإنها لا تبالى بى . وأصبحت لا أستطيع عنها فراقاً ففكرت فى أن أنحى قليلا من راحة فؤادى وأقطع ما بينى وبينها من صلة . ولكنى فكرت أيضاً فى أنها لن تكاد تفارق بابى حتى تعود سيرتها الأولى ؟ من حياة يملؤها العار ، ومن ليل بؤس ليس له نهار ، فعدلت عن فكرتى رحمة بها وحباً لها ، ثم كيف أهجرها وقد تغلغل حبها فى صميم فؤادى وأصبحت أرى ليالى الطويلة الباردة عامرة بحنو يسلى وحدتى ويزيل وحشتى ، أأهجرها وأنا أحبها أكثر من أمس وأقل من غد ؟ أأهجرها وهى أول امرأة خفق لها فؤادى وأول من غرام مشت ناره بين أضلاعى !

واشتريت لها كل ما وسعته ثروتي من لوازم النساء. وصحبتها إلى كل مسارح اللهو ومرابع السرور خشية أن تمل مكثها في المنزل وهي ابنة اللهو والسرور. وضاقت يدي ذات يوم عن قضاء حاجة لها فاستدنت وكان أول ما استدنت .. فأهمني أمره وأرقني وقره . . . ولم أبح به لمرغريت . . . وعلام وأنا أتوقع ردها ، وماذا تريد أن أفعل لك ، دعني وشأني ! .. ولينفصل أحدنا عن الآخر » ثم استدنت مرة أخرى . وأنا لا أبوح لها بما في نفسي من خوف مؤلم من المستقبل المظلم .

وإني أقول ما سأقول الآن وأنا واثق من صحته . ذلك أن كل الرجال الذين رمت بهم يد الغرام أو يد المرأة إلى مثل موقفي هذا يحاولون خلاصاً من هذا الموقف بفشيانهم ما يسمونه طريق الحظ أو السعد فيقصدون بيوت القمار . أو ساحات السباق . . وذلك أن أحد رفقائي في عملي كان يفشاها وطالما أسعده الحظ بأن ربح . وكان جالساً أمام مكتبه باسطاً صحيفة تدلي لقرائها بما تراه في أمر الخيل وأيها السابق وأيها المصلي . وأخذ يناقش آخر في أمر جواد معلوم ، يرى أنه ولا شك السابق . وأنه لا شك مراهن عليه .

فقلت إذ ذاك : ولم لا أعمل مثل صديق فربما أسعدني الدهر فربحت فأسعدت نفسي ومرغريت وضربت بيدي إلى جيبي فوجدت فيه دراهم معدودة . فطرحت فكرة القمار مرغماً .

وذات ليلة ونحن في طريقنا إلى الملهى وقفت مرغريت أمام حانوت جوهري ونظرت إلى أساور من ذهب وماس وقالت لي : ما ثمن هذه الحلية ؟

فقلت : إنها تساوي أربعين جنيهاً !

فقالت : إن مثل هذه الأشياء جعلت للأغنياء ولا أدري لمَ لم يجعلني الله من عبادهم ... ونظرت إلى دمعة تترقرق في مآق عينيها . فكدت أبكي لها ولنفسي . وفجأة طرقت رأسي فكرة القمار في سباق الخيل ، وفكرة الجواد السابق ، ولكن أين لي المال لأراهن عليه ؟ . ... ولكن المال كثير في خزانة المحل وأنا الأمين عليه . وما دام المكسب مضموناً مع هذا الجواد ، فلم لا أمد يدي إلى ألفي فرنك أربي بها في سوق القمار ثم أربح وأعيدها إلى مكانها الأول واحفظ الربح لنفسي؟ هذا خير رأي ، وأصوب فكر . ولكن ما العمل إذا خسرت ؟ قلت ذلك لنفسي . ونظرت نظرة غضبي إلى مرغريت وهي عالقة بذراعي . ولكن أحمد الله فإنها كانت ملتفتة إلى ناحية أخرى تنظر إلى معروضات المخازن . إذ لو رأت نظرتي لارتاعت ذعراً . . إذا خسرت ؟ نعم إذا خسرت لا شيء غير أن يجيء رجل أو اثنان من الشرطة فيقبضان علي باسم القانون ، وأجلس محنى الظهر على مقعد المتهمين في محكمة الجنايات ، ثم أقضي بعد ذلك جزءاً غير قصير من عمري في غياهب السجن ، ذلك إذا خسرت ؟ ولكن أكون بعملي هذا قد قدمت إلى مرغريت برهاناً قوياً ودليلا قاطعاً على حبي لها ؟ وربما أحبتني إذ ذاك لعلمها إني أتيت ما أتيت مرضاة لها .

ولكن لماذا هذا الخلط في الحديث فالساعة أزفت . ولا فائدة من أن أثقل على قارىء هذه الصفحات بتفاصيل ما ارتكبت ولم أقص عليه كيف ارتكبت السرقة ، ولا كيف وقفت تتنازعني العوامل المختلفة من خوف إلى حزن ، إلى ندم ، إلى أمل إلى فرح ، وأنا في ميدان السباق . ولا كيف خسر الجواد وجاء مجلياً ، ولا كيف اكتشفت سرقتي ، والقبض علي ، وعما كتي ثم سجني ...

الوداع يا مرغريت . إني أحبك ، وأغفر لك وأعفو عنك . فلربما سالت دمعة من عينيك عندما تقرأين هذه الصفحات الملوءة بذكرك ، كوني مخورة أمام عاشقك الجديد بأن هناك رجلا انتحر لأجلك ...

هاهوذا نصف الليل لقد دقت الساعة ، وهأنذا قد أحكمت الحبل إلى النافذة فلا تشجع ولأنهي الأمر ! ...

(دمشق) عبد اللطيف حسين الأرناؤوط

اطلب نسختك من كتاب

أحمد عرابي

للأستاذ محمود الخفيف

مطبعة الرسالة :

تقـــدم هذا الأسبوع

في ثوب جديد ... وطبع فاخر ... وإخراج فني

الطبعة الجديدة

من المجلد الأول

من كتـــاب :

وحي الرسالة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وتقدم في الأسبوع القادم

ابراهـــام لنـــكولن

للأستاذ محمود الخفيف

بحث وافٍ في قرابة ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير

دراسة مفصلة للحرية والديمقراطية والعصامية في تاريخ هذه الشـــخصية العالمية الكبرى لنكولن ابن الغابة ... لنكولن الرئيس ... الحرب الأهلية وكيف حفظ الرئيس بها بنـــاء الوحدة ؟ ... لنكولن المحرر الأكبر للعبيد

يا شباب الوادي

خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا المصلح العظيم

مصلحة سكك حـــديد الحكومة

إعـــلان

تعلن مصلحة السكك الحديدية الجمهور بأن السفر في قطاراتها غير مقيد بأي شرط في المناطق التي تسير فيها قطاراتها .

وتنصح المصلحة الجمهور الراغب في السفر أن يحصل على شهادة تطعيم ضد الكوليرا معتمدة من وزارة الصحة حتى لا يفاجأ في المستقبل بتعطيل انتقاله إذا ما قررت وزارة الصحة تقييد السفر بضرورة حصوله على هذه الشهادة .

أما السفر إلى الوجه القبلي ابتداء من يوم ٢٧ أكتوبر الحالي فمقصور على حملة شهادة التطعيم المعتمدة من وزارة الصحة .

المدير العام

مطبعة الرسالة